

العنوان:

البنوية التكوينية في النقد الأدبي.

Title : Genetic structuralism in literary criticism

د. كمال رايس

المؤسسة: جامعة العربي التبسي-تبسة-الجزائر.

كلية الآداب واللغات

البريد الإلكتروني: raiskamel.12@gmail.com

ملخص :

موضوع هذا المقال هو التعريف بالمقولات الفكرية والإجراءات النقدية لمنهج البنوية التكوينية كما عرضه "لوسيان غولدمان". فالبنوية التكوينية-عنده- **منهج نقدي** يبحث المنجزات الثقافية الكبرى من حيث التشكلات والدلالات. ومن اهتماماته؛ مقارنة النصوص الأدبية وفق منظور يتيح للناقد أو الدارس الانتقال بين النص وخارجه؛ من خلال تطبيق مقولات وآليات إجرائية؛ تتزوج البحث عبر الحفر في مستويي **الكيف** الشكلي للنص-كيف كتب النص؟- وبين **الماذا** الدلالي الماركسي-لماذا كتب النص؟-. وبذلك تقدم البنوية التكوينية رؤيتها عبر تجاوز مقولة **انغلاق البنية والتأكيد** على تعالقي الوثيق بالبنيات الخارج نصية لا سيما في عمقها الاجتماعي والإنساني والثقافي.

الكلمات المفتاحية: البنوية-البنوية التكوينية-النقد الأدبي

Abstract:

This article will attempt to present the ideological categories and critical operational tools of genetic Structuralism as proposed by Lucian Goldman. The latter conceives genetic structuralism as a critical method that studies the great works of culture by focusing on forms and meanings. This method is also interested in approaching literary texts from a perspective that allows the critic to go back and forth from the text to the extra-text and vice-versa, applying categories and operational tools. who adhere the search of the two levels: the level of the formal how of the text (how the text is written) and the level of the Marxist semantic why (why the text is written). Thus the genetic structuralism proposes its own vision by going beyond the idea of the closed structure and insisting on its entanglement with **extratextual structures, especially in its social human and cultural dimensions.**

Key words: structuralism- genetics- literary criticism.

المفاهيم والمعايير المنهجية للبنوية التكوينية:

يعتبر التحليل البنوي التكويني من أهم التطبيقات النقدية في تاريخ الأدب. حيث ينطلق من الفرضية القائلة أن كل سلوك ينتجه فرد ما في بيئة ما؛ ما هو إلا تكيف عقلي مع الوضعية التي هو عليها، أي: انه بسلوكه ذاك إنما يحاول إعطاء جواب دلالي على موقف خاص ينزع إلى إيجاد توازن بين فاعل الفعل والموضوع الذي يتناوله، أي العالم المحيط. ويحتفظ هذا النزوع نحو الموازنة على الدوام بطابع متغير، ومؤقت، بما يكفل توازن كاف بهذا القدر أو ذاك بين البنى العقلية للفاعل والعالم الخارجي؛ يؤدي إلى

وضع يحول داخله سلوك الإنسان العالم ، ويجعل فيه هذا التحول، من التوازن القديم غير كاف؛ بحيث يولد نزعة نحو موازنة جديدة سيتم تجاوزها بدورها فيما بعد¹. وهذا ما يشكل علاقة جدلية بين الفعل وموضوعه، غالبا ما تهيمن عليها ملابسات الواقع الاجتماعية والنفسية والسياسية؛ التي تتحكم في طبيعة هذا التوازن . ولاستخراج هذا التوازن الموجود والمعبر عنه في النص،"فان هذا يتطلب أيضا عمليات ذات وجهين :تفكيك البنى القديمة ، وتركيب كليات جديدة، قادرة على إيجاد ضروب من التوازن تستطيع الاستجابة للمتطلبات الجديدة للجماعات الاجتماعية التي تعدها".²

ضمن هذا المنظور، تقتضي مقارنة الأعمال الثقافية للإنسان معرفة واسعة قادرة على تحديد البنيات الفعلية التي تتحكم في مستوى الفاعل والموضوع. ومن هنا فان غاية البنيوية التكوينية إظهار العلاقة الفعلية القائمة بين الأدب والمجتمع والتاريخ باعتبارها أبنية متعالية والتأكيد على هذه العلاقة. « فالتفاعل أكيد وحتمي -بينها-وبينهما جدل حقيقي يعمق فيهما هذا التفاعل وينمي من خلاله الرؤية للعالم، إذ النص الأدبي منتج للأديب، والأديب قائم في وسط اجتماعي»³.

وتأسيسا على ما سبق ،نستنتج أن البنيوية التكوينية في نظرتها للأدب تقارب الطابع الجمالي له من خلال عرض بنى عالم المبدع المتجانسة مع البنى العقلية لبعض الجماعات الاجتماعية .وعليه يصير النص تعبيراً عن رؤية الجماعة التي ينتمي إليها المبدع.فهو يعبر عن جماعة أو طبقة وقد لا يعبر عن ذاته أصلاً،إلا بمقدار ما تختزنه النصوص من نوايا واعية للمؤلف أو الكاتب.

تهتم البنيوية التكوينية حسب "غولدمان " بالنص الأدبي وتقاربه وفق ثلاث زوايا :

- أولها زاوية العمل الأدبي ، وتدرس فيه تركيب النص وخصوصيته النصية البنائية.
- ثانيها ؛منتج العمل الأدبي :فتحفر في مستوى العلاقة بين الجماعة المبدعة والمبدع نفسه،"فالكاتب الكبير هو على وجه الدقة الفرد الاستثنائي الذي ينجح في أن يبدع في ميدان ما هو المبدع (أو التشكيلي أو المفهومي أو الموسيقي،الخ)عالمًا خياليا متماسكا أو شبه متماسك بدقة تطابق نيته التي ينزع إليها مجموعة الجماعة،أما بالنسبة للمبدع فانه يكون ،بين ما يكون ،رديئا أو شديد الأهمية بقدر ما تبتعد بنيته أو تقترب من التماسك الدقيق".⁴

- ثالثها :الفترة التاريخية التي أنتج فيها العمل ،ويقوم الباحث عبرها بأخذ معرفة مسبقة حول المرحلة التاريخية التي ظهر فيها ،والفئة الاجتماعية التي يعبر عنها، فيعتمد إلى تتبع سيرة المؤلف وملابسات ظروف عصره السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

- « لسيرة الحياة أهمية كبيرة وعلى المؤرخ الأدبي أن يتفحصها دوما بعناية-ولكنها عند التحليل - ليست سوى عامل جزئي وثانوي». ⁵ وهذه الإجراءات تكون مفيدة باعتبارها مدخلا لمقاربة العمل الأدبي، ينظف إليها جملة إجراءات منهجية.نعرضها وفق نموذج وتصورات "غولدمان".

1.5-الديالكتيك أو الجدلDialectique⁶:

تعد مقولة الجدل من أهم المقولات الفلسفية الماركسية الأكثر قبولا في حقل النقد الأدبي، بل على مستوى الدرس الإنساني ككل.ويعزى الأمر في ذلك إلى قدرة الجدل على مزج عناصر بعناصر أخرى مما يسهم في توجيه حركة هذه العناصر ضمن علاقات جديدة ناتجة عن تفاعل العناصر السابقة والتي بدورها يمكن إن توضع في بناء يستوعبها وهكذا دواليك.وعليه تبدو الجدلية المحرك الفعلي والأساس الفلسفي للمقاربات الماركسية للمنتجات الإنسانية .

وبما أن البنيوية التكوينية -كما السوسيو- بنائية -تستمد جوهرها ومبادئها من هذه الفلسفة فإن واقع الجدل في المنتجات الأدبية،حسبها،كامن في مستوى البنية التحتية والبنية الفوقية الخاصة بالمجموعة المستهدفة بالدرس.

وبناء على ما سبق؛ يقدم الجدل في النسخة الغولدمانية ذاته عبر فعل الانعكاس الدال بين مستويات الوعي الفردي والجماعي و ظروف وملابسات وجودهم . « فالواقع المادي أي علاقات الإنتاج وقوى الإنتاج وهي ما نسميه بالبنية التحتية ؛ تولد وعيا محددا. هذا الوعي يضم الثقافة والفلسفة والقوانين والداستير والفكر والفن وهو ما نسميه البناء الفوقي .وترى أن أي تغير في البناء التحتي يستتبع تغيرا في البناء الفوقي »⁷.بمعنى أن أي تغييرات أو تعديلات تمس علاقات الإنتاج تؤدي بالضرورة إلى التغيير في مستويات التعامل مع الطارئ الجديد،وهذا ما يعد تغييرا في مستوى وشكل الوعي ذاته.

هكذا؛ عدت البنيوية التكوينية الجدلية؛ أساسا هاما في مقارباتها للمنتجات الأدبية ، جاعلة منها محور الانتقال بين داخل النص وخارجه.فالجدلية هي المخرج الوحيد لمشكلة فهم الانعكاس و بهذا الاعتبار ترفض البنيوية التكوينية فكرة الانعكاس البسيط بين عالم الرواية والمجتمع الذي ظهرت فيه. ذلك أن الأدب ليس مجرد تابع ومثلث للظروف الخارجية ؛لأنه ظاهرة متطورة -أي- تؤثر وتتأثر بالعلاقات الاجتماعية مثلما يؤثر البناء الفوقي بعد استقراره في تثبيت أو تحوير أو هدم البناء التحتي ⁸. و يمكن التدليل على ذلك بما أكدته الوقائع التاريخية للإنسان في مسيرته الممتدة من وضعه البدائي إلى وضعه المتمدن الحالي. أو ربما يمكن التدليل على ذلك ،بتغير المجتمع الأوربي من المرحلة الإقطاعية إلى المرحلة البورجوازية أو كانتقال المجتمع العربي من مرحلة الريادة الحضارية في القرن العاشر إلى مرحلة الانحطاط والتشردم في القرن السابع عشر وما تلاه.

5-2- البنية الدلالية ؛ La structure significative

يعتبر مفهوم البنية الدلالية أحد المفاهيم الأساسية التي أرست قواعد البنيوية التكوينية، فهي حسب "غولدمان": «الأداة الأساسية التي تمكننا من فهم طبيعة الأعمال الإبداعية ودلالاتها. كما تُعد المعيار الذي يسمح لنا بأن نحكم على قيمتها الفلسفية أو الإبداعية أو الجمالية، بمقدار ما يعبر-النص- عن رؤية منسجمة من العالم. وإنما لنتمكن من فهم تلك الأعمال وتفسيرها تفسيرًا موضوعيًا بمقدار ما نستطيع أن نبرز الرؤية التي تعبر عنها»⁹.

ولـ"غولدمان" نصيب هام في تحديد خصائص البنية، فهو لا يتعامل معها منفردة أو معزولة عن سياقها بل يبحثها في إطار الظروف التاريخية التي أنتجتها. فلا يمكن بأي حال من الأحوال تقديم أجوبة شافية حول طبيعة العمل وهو معزول عن سياقه الخارجي، بل يجب تحريك الجدل بين داخل النص وخارجه، لمعرفة طبيعة البنية، التي عدها "النظام أو الكل المنظم الشامل لمجموعة من العلاقات بين العناصر"¹⁰.

يفترض المفهوم السابق - إذن - وجود علاقة بين العناصر الداخلية للنص بصفاتها أبنية عقلية وبين مراميها المضمونية؛ التي ترتبط ببناءات الوعي لدى مجموعة لغوية بشرية. وفي هذه العلاقة تندمج المعطيات الشكلية والوجدانية لتكون بنية أوسع هي البنية الدالة؛ وهي «محاولة لتقديم جواب دلالي على موقف معين وغايتها خلق توازن بين الذات الفاعلة وبين موضوع الفعل أي العالم المكتنف بها»¹¹ وهذا ما يتم عبر تحليل داخلي للنتاج، وإدراجه ضمن البنيات التاريخية والاجتماعية المحيطة بالإنسان كتجارب الثورات والحروب والتبادل التجاري والهجرة؛ التي تسمح -ولو جزئياً- بترسيم حدود النص الأدبي. ومن هنا، يستلزم البحث التكويني مسحا معرفيا للبنى الموسعة التي تحيط بالنص الأدبي «كالبنى الذهنية، ورؤى الطبقات الاجتماعية للعالم والبنية الاجتماعية والبنية الاقتصادية التي تفرزها حقبة تاريخية معينة»¹².

وعليه «يحقق مفهوم البنية الدالة هدفين مزدوجين، يتحدد الأول في فهم الأعمال الأدبية من طبيعتها، ثم الكشف عن دلالتها التي تتضمنها وهذا الهدف يرتبط أساساً بالفهم، أمّا الثاني فيتمثل في الحكم على القيم الفلسفية أو الأدبية أو الجمالية وبذلك يصبح للمفهوم بعداً معيارياً»¹³، وهذا ما يسمح بمعالجة أشمل للقيم التي تنظم ضمناً مجموع عالم النتاج.

5-3- الوعي؛ CONSIANCE :

ينتمي مصطلح الوعي إلى حقل الدراسات النفسية وعلومها. وهو مصطلح شائع الاستعمال لدى كثير من النقاد الذين يوظفونه كأداة معرفية؛ تسهم في تقريب عمليات الشرح والتفسير خاصة في المنتجات

الأدبية. غير أن الملاحظ على مستوى المصطلح في توظيفه -من قبل ميادين معرفية عدة هو- جنوحه إلى التبدل والتغير بفعل ملابسات التكوين الاجتماعي والنفسي سواء بالنسبة للفرد، أي: الوعي الفردي-أو بالنسبة إلى الجماعة أي: الوعي الجمعي. ومن ثمة اقر "غولدمان" صعوبة تحديد مفهوم الوعي. فمن الصعوبة بمكان، تحديد الوعي تحديدا صارما، فهو يستعصى على التحديد الدقيق لأن صلب مشكلته تقوم باعتباره ذاتا وموضوعا في الخطاب، فلا يمكن التعامل معه بشكل مستقل كمصطلح مجرد بعيد عن علاقاته بالنص وفي النص.¹⁴

ومن ثمة؛ ناقش "غولدمان" المصطلح عبر تحيين العوامل المشكلة للوعي وهي:

الغابرة، والقارة، والمرتبطة بالجماعة نفسها، علما أن زوال العوامل الغابرة والقارة لا يؤدي إلى زوال المجموعة. أما العوامل المرتبطة بالمجموعة فان زوالها يؤدي إلى زوال المجموعة وإبادتها.¹⁵

وتأسيسا على ما سبق، تكون العوامل الغابرة والقارة جزئية ثانوية يمكن التخلي عنها أثناء استقراء مستويات الوعي في حين يجب تتبع مسارات الوعي بين الطبعيتين الفردية والاجتماعية أثناء التحليل. وهذا الأمر، يقتضي مراعاة مستوى الوعي الفردي في إطار الوعي الجماعي مع ضرورة التأكيد على طبيعة الفروق والملكات الفردية بين الأفراد «فقد ثبت بأن المرء يستطيع أن يلمس درجة من التناسق تتجاوز بكثير درجة التناسق التي يمتلكها الأعضاء الآخرون للمجموعة»¹⁶. وربما هذا ما تصح تسميته بعبقرية الأديب أو المؤلف؛ الذي يكاد بالفعل -وفي بعض الأحيان أن يتمثل ملابسات وضع مجموعته ويصوغها على شاكلة رؤيا العالم التي تتبناها الجماعة التي يعبر عنها .

وفي ضوء التمييز بين الفردي والجماعي، استقاد "غولدمان" من المقولات الماركسية المادية التي تقارب الوقائع الإنسانية من منظور مادي محسوس، وراح يصنف مستويات الوعي. وخص منها الوعي القائم الفعلي، والوعي الزائف-الوهمي؛ الحلم- والوعي الممكن. انطلاقا من الوضع الاجتماعي للأشخاص و الطبقات والجماعات.

5-4- الوعي القائم والوعي الممكن *Conscience possible et conscience réelle*

على الرغم من إقراره بصعوبة تحديد مفهوم الوعي؛ ناقش "غولدمان" مسار الوعي القائم والوعي الممكن، من زاوية كونهما المدخلين المناسبين لفهم المنجزات الثقافية الكبرى، فيغدو الأول وعيا قائما ناجما « عن الماضي بمختلف أبعاده وظروفه وأحداثه، بما تسعى كل مجموعة اجتماعية لفهم واقعها انطلاقا من ظروفها المعيشية والاقتصادية والفكرية والدينية»¹⁷. وهو بهذا المفهوم يتقارب مع حقل علم النفس الذي يرى في الوعي القائم وعيا آنيا هو عينه الحالة النفسية للفرد أو الجماعة التي ينتمي إليها. فقد أكد عالم النفس "دلتاي Dilthey «أن الانطلاق من العالم -كما هو- يعتمد على الوعي الفردي، على القدرة

التي يملكها الفرد على أن يعيش صلة نفسية وإن يفهمها عند الغير ،أن غرضه هو العثور على الانفعال المناسب بواسطة جماعية الانفعال والفهم التي تشكل المعرفة التاريخية».¹⁸

وتأسيسا على ما سبق؛ تغدو الصلات النفسية بين الفرد وجماعته، الجسر الحامل لقضايا المجتمع واهتمامات أفرادها. فتشكل بناءات الوعي قصد التعامل مع العالم بطريقة أكثر نفعية وانسجاما.

ومن هنا يمكن القول :

« أن الوعي الفعلي هو وعي آني لحظي من الممكن أن يعي مشاكله التي يعيشها، لكنه لا تملك لنفسه حولا في مواجهتها والعمل على تجاوزها»¹⁹، فكثيرا ما يحدث « أن الوعي القائم لجزء هام من أفراد جماعة تطمح إلى تغيير وضعها القانوني أو إلى الاندماج في جماعة أخرى، أو أن الأفراد المكونين لتلك الجماعة يجهدون جزئيا في تبني قيم جماعة أخرى غير جماعتهم ... ومع ذلك يتحتم على عالم الاجتماع ألا ينسى بأن هذه العناصر من الوعي القائم تظل في إطار أنماط الوعي الممكن لجماعة ما »²⁰.

أما الوعي الممكن؛ فهو الذي ينشأ عن ملابسات الوعي القائم ومحاولة تجاوزه، من خلال التأسيس لأفكار ذات بعد مستقبلي تغييري غالبا. وهذا طبيعي. فالوعي الممكن يسعى لتجاوز العوائق والمشاكل التي تصيب الطبقة (المجموعة الاجتماعية)، كما يسعى إلى رصد الحلول الجذرية التي تتأى بها الطبقة عن مشكلاتها. وتحاول أن تضمن لها درجة من التوازن في العلاقات مع غيرها. وبالتالي يمكننا القول أن « الوعي الممكن يتضمن الوعي الفعلي وإضافة عليه أنه يستند عليه ولكنه يتجاوزه »²¹.

وخلاصة القول، أن الوعي الفعلي - القائم - يرتبط بوضع الإنسان أو الطبقة الاجتماعية عبر مسيرتها التاريخية والاقتصادية والاجتماعية، بينما يتجاوزه الوعي القائم بالبحث عن الآمال والحلول التي تغير الواقع وتطرح البدائل.

يقول "جابر عصفور": « عندما يصل الوعي الممكن إلى درجة التلاحم الداخلي تصنع كلية متجانسة من التصورات عن المشكلات التي تواجهها الطبقة وكيفية حلها، وعندما تزداد درجة التلاحم شمولاً لتصنع بنية أوسع من التصورات الاجتماعية والكونية في آن، عندما يحدث ذلك يصبح الوعي الممكن رؤية للعالم».²²

5-5-الفاعلية - subjectivité:

تعد موضوعة تحديد الفاعل الأدبي؛ من أهم القضايا والموضوعات التي شغلت حيزا هاما من الاهتمام على مستوى الدرس النقدي الحديث والمعاصر. كما تعد في الآن نفسه من اعقد القضايا التي تواجه الباحث في مقارنته للنصوص. يوضح "غولدمان" الفكرة السابقة بقوله :

« هناك في المقام الأول مشكلة من هو في الحقيقة الفاعل في الفكر وفي الفعل...يمكننا أن نرى هذا الفاعل في الفرد وتلك حالة المواقف التجريبية والعقلانية وبصورة متأخرة الفينومينولوجيا، ويمكننا أيضا تقليص الفرد إلى مجرد ظاهرة عارضة وان نرى في المجموعة الفاعل الحقيقي الوحيد والأصيل وتلك حالة بعض أنماط الفكر الرومانتيكي، ويمكننا أخيرا أن نقبل مع الرومانتيكية المجموعة بوصفها فاعلا حقيقيا دون أن ننسى مع ذلك، أن هذه المجموعة ليست شيئا آخر؛ سوى شبكة معقدة من العلاقات عبر الفردية »²³.

وعليه؛ تغدو عملية تحديد الفاعل الأدبي، عملية صعبة وهي في الآن ذاته إجراء ضروري من إجراءات التحليل البنوي التكويني. تهدف إلى تحديد العلاقات النسقية العقلية ومدى تمثلها أو تمظهرها جماليا على مستوى المنتجات الأدبية. ويمكن تقديم الفاعل الأدبي حسب طرح "غولدمان" على أساس انه الجهة المنظمة والموجهة لحركة النص الأدبي؛ وهو الفاعل -عبر الفردي أو الفاعل الجمع- الذي يمكن أن يكون فردا أو طبقة أو طائفة. ذلك أن «الجماعة وان كان يمكن قبولها كذات فاعلة حقيقية، ليست سوى شبكة معقدة من العلاقات المتبادلة بين الأفراد»²⁴.

وبهذا تكون البنوية التكوينية قد أرست تصورها حول الفاعل الأدبي وهو الإنسان؛ جاعلة كلا من العوامل الداخلية والخارجية للنص الأدبي، بنيات رئيسة أثناء فعل التحليل. وهذا ما يجعل البنية أكثر انفتاحا مما هي عليه في الدراسات النحوية واللسانية. فالبنية أو اللغة أو علاقات الإنتاج لا يمكن أن تكون بمثابة فاعل، الفاعل الوحيد الممكن هو الإنسان الذي يصنع التاريخ، في إطار بنى ولغات وعلاقات إنتاج معينة. وما التاريخ من هذا المنظور إلا محصلة الممارسة التي تؤديها الجماعة البشرية.²⁵ ومن هذا المستوى، يمكن عرض الفعل والفاعلية عبر إضفاء صفة التاريخية على الفاعل الثقافي نفسه وذلك من خلال دراسة علاقات التفاعل بين مستويات الوعي القائم، والوعي الممكن لدى فئة اجتماعية محدودة. مع محاولة تنميط مستويات الوعي انطلاقا من تتبع الأفكار وكيفية عرضها. وهذا ما يساعد على تحديد الفاعل الثقافي الأدبي وعلاقته بالمجموعة.

يقول "غولدمان" في هذا الصدد: «إن العلاقة الأساسية القائمة بين الحياة الاجتماعية والإبداع الأدبي لا ترتبط بمضمون هذين المجالين في الواقع الإنساني، وإنما ترتبط فقط بالبنى الذهنية، أي ما يمكن تسميته بالمقولات التي تنظم الوعي التجريبي الذي تتمتع به فئة اجتماعية معينة والعالم الخيالي الذي يخلقه الكاتب»²⁶. ومنه يصير الوعي الأرضية المنهجية والأداة الإجرائية -في آن -لفهم وتفسير المنتجات الأدبية.

5-6- الفهم والتفسير / Comprehension et explication :

اعتمد "غولدمان" في دراساته النقدية على ضابطين منهجيين هما الفهم والتفسير، فالفهم حسبه هو الكيفية التي يفهم بها الدارس عناصر النص الأدبي عبر بحث دقيق عن «الانسجام الداخلي والبنية الدالة الشاملة وملاحظة الترابط أو عدمه والثراء اللغوي»²⁷، وهو بحث متعلق أساساً بتتبع الانسجام الداخلي للنص، «وهو يفترض أن نتعامل حرفياً مع النص، كل النص ولا شيء غير النص»²⁸.

وقد أوضح "جميل شحيد" هذا المفهوم في مؤلفه " في البنيوية التركيبية " معتبراً بأنّ الفهم عملية فكرية تتمثل في الوصف الدقيق للبناء الدلالي الصادر عن العمل الأدبي/الإبداع المدروس فقط، وعليه يمكن للباحث استخراج نموذج دال وبسيط يتكون من عدد محدود من العناصر والعلاقات التي تمكنه من إحصاء صورة إجمالية لكل نص بشرط أن يؤخذ النص وحده كاملاً دون إضافة خارجية عنه بواسطة خطوات هامة هي:

- إيجاد مجموعة من الأشكال الدالة للنص تسمح بإعطاء صورة إجمالية له ثم وضع علاقة شاملة لكل نص.

- تجنب حذف بعض العناصر وإضافة أخرى.²⁹

أمّا التفسير فيهدف إلى معرفة البعد الاجتماعي لهذه البنيات اللغوية المدروسة أدبياً، فيحاول الناقد دمج هذه البنيات في بنية أكبر هي السياق الذي شهد ظهور النص. ومن ثمة فالتفسير يكفل تعميق النظر في البنية نفسها؛ باعتبارها وظيفة لبنية اجتماعية أوسع منها.

وما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد، أن التفسير أوسع من الفهم بل يحتويه وهما في الواقع « ليسا نسقين مختلفين، وإنما هما نسق واحد في إطارين من المرجعية»³⁰. إذ لا يمكننا الفصل بين مرحلة الفهم ومرحلة التفسير لأن الأولى تنصبّ على تحليل الأبنية الداخلية للعمل الأدبي، وهي ما يسميها غولدمان بالقراءة المحايثة³¹. أما التفسير - المرحلة الثانية - فيتأسس على تحليل البنيات المفسرة وإدماج الأولى فيها وتعبيرها من خلال الثانية؛ أي أن التفسير، يقتضي عند الدرس «إنارة النص بعناصر خارجية عليه بغية الوصول إلى إدراك مقوماته ... بإدخال بنية دلالية في بنية أخرى أوسع منها، تكون فيها الأولى جزءاً من مقوماتها»³².

5-7- رؤية العالم ؛ Vision du monde :

يعود تاريخ استعمال مصطلح "رؤية العالم" إلى المفكر الألماني "دلثاي" DELTHAY الذي لم يجعله «مفهوماً إجرائياً بل مكوناً فعالاً لما يعانیه الفرد ويعيشه»³³. وعلى الرغم من الصبغة الماركسية التي

كست المصطلح إلا أن توظيفه في السياق الأدبي قد نم عن رغبة جامحة - من قبل النقاد والمفكرين - تسعى إلى تعيين الأطر التي دفعت الكاتب إلى التعبير عما قاله داخل العمل الأدبي. ذلك أن هذه الرؤية تقوم في تشكيلها على جملة من المقولات العقلية التي خصها "غولدمان" لتحديد آفاق الأفكار التي تحملها الطبقات لرسم واقعها أو لتحديد مستقبلها .

يقول "غولدمان" بهذا الصدد: «المقولات العقلية لا توجد في الجماعة إلا في شكل نزعات متقدمة نسبيا نحو تماسك أطلقنا عليه رؤية العالم»³⁴.

ولقد شكل مفهوم رؤية العالم، الأرضية المنهجية التي يمكن عبرها مقارنة النصوص الأدبية حسب تصور غولدمان؛ إذ ساهم هذا المفهوم بتثبيت أركان نظريته كنظرية فلسفية نقدية خصوصا انه حدد رؤية العالم كنموذج تفسيري، يستفيد من المنهجية التي قامت عليها الطريقة السوسيولوجية في العمل على النص. إضافة إلى انه يجعل الأبعاد السوسيولوجية عمودا أساسا من أعمدتها.³⁵

وباعتبار الخلفية الماركسية للمصطلح -النظرية- فان حضور فكرة الطبقات الاجتماعية أثناء فعل التحليل تسهم بشكل فاعل في تحديد الأفكار الناتجة عن تفاعل هذه الطبقات والظروف والعوامل المساندة، كالوضع الاقتصادي، وشروط الإنتاج. وتجدر الإشارة، إلى أن "غولدمان" -رغم أهمية قيمة الطبقة الاجتماعية- لم يشترط « أن تولد النظرة إلى العالم عند الأديب الفيلسوف في طبقته الاجتماعية أو الوسط الذي نشأ فيه».³⁶ وعليه، يستوجب ربط الطبقات الاجتماعية برؤية العالم وبيان العلاقة التي تربط بينهما، وهذا الربط، هو الذي سهل على "غولدمان" التخلص من مقولات التأثير والتأثير والتي ساعدته على تجاوز الربط البسيط والآلي لوضع الطبقات المعبر عنها في النص الأدبي وما يحتويه -هذا الأخير- من أفكار تجسد في كليتها رؤية العالم.

ومن هذه الزاوية، عمل "غولدمان" على تعيين جملة العقبات التي تواجه البحث التكويني حول رؤية العالم محددا إياها بمدى "معرفة علاقات النظرة بالطبقة الاجتماعية وتحديد العلاقات بين مختلف النظرات المتواجدة في وقت واحد، ثم مشكلة الخيال والسلوك"³⁷ ذلك أن الخيال الإنساني يجب أن يبقى على صلة مع سلوك الإنسان نفسه، علما بأن الطبقة الاجتماعية هي التي تحدد طبيعة السلوك ضمن منظومة اجتماعية تحدده، وهذه النظرة الشاملة تستوعب النظرات الجزئية لهذا العالم .

وإلى جانب مراعاة السلوك والخيال؛ أشار "غولدمان" إلى مساحة الرؤية أو زاويتها ومدى عمقها ونفاذها، معتبرا إياها، عناصر مهمة للتمييز بين الرؤية من الداخل أو من الخارج³⁸. فالنظرة إلى العالم سواء أكانت داخلية أو خارجية تقوم على صاحب الرؤية ذاته؛ إن كان من الطبقة التي شكلت الرؤية وزاويتها أم من خارجها. فمثل هذا الأمر يؤثر في خصوصيات الرؤية من حيث العمق أو السطحية، أو

حتى في زاوية الرؤية ذلك انه « ليس هناك فرق كبير بين زاوية الرؤية أو مساحتها من جانب ومدى عمقها ونفاذها من جانب آخر». ³⁹ وتبقى مناقشة الرؤية إلى العالم، السبيل الأوحده لفهم النصوص الثقافية الكبرى، باعتبارها تجلياً للتكوين المعرفي الذي يستوعب النصوص في حد ذاتها. وفي هذا المستوى يولي "غولدمان" اهتماماً خاصاً بمقولة البنية الدالة التي تشكل مع مقولة رؤية العالم "وحدة متكاملة" وهذا التكامل بينهما جاء من تقسيم التعامل مع النص الأدبي بينهما، فأنيطت مسألة شرح العمل الأدبي وتفسيره بالبنية الدالة، في الوقت الذي كانت فيه رؤية العالم هي التي تفهمه وتدركه وتصفه في إطاره الاجتماعي المتميز ⁴⁰.

أما عن مدى تماثل رؤية العالم مع الأديب المنتج-صاحب الرؤية- فقد أشار "غولدمان" إلى المنظور الذي ينطلق منه الأديب-الفنان- في عمله، فهو حسب محدد برؤية العالم وسيكون منه أرسقراطياً أو برجوازيًا، أو بروليتاريًا، بقدر ما تكون هذه الرؤية أرسقراطية، برجوازية، أو بروليتارية ⁴¹. ومن مقارنة أشكال التماثل القائمة بين رؤية العالم والأديب المنتج، استخلص "غولدمان" أنواع الرؤية للعالم التي صنفها إلى «مأساوية، عقلانية، وجودية، جدلية» ⁴² مع ضرورة ربطها بفترة زمنية تاريخية معينة. ومن ثمة؛ يتم ربطها بالبنية الذهنية والإطار الاجتماعي والاقتصادي للطبقة الاجتماعية التي انطلقت منها ⁴³؛ وهذا ما يقود إلى إمكانية تغيير الرؤية باعتبار الظروف التي تتحكم في صيرورة المجموعة الاجتماعية، فيتيح لها ذلك القدرة على التكيف مع مستجدات الحياة، بالإضافة إلى إمكانية تغيير زوايا النظر إزاء العالم، والانتقال من نوع-رؤية- إلى آخر.

تعد مقولة رؤية العالم جوهر المنهج التكويني ⁴⁴، بحيث تستقطب إلى فلكها بقية عناصر التحليل، فتشكل بنية شاملة قادرة على «تشكيل العالم والذات والنص، كما تكون قادرة على التحليل والتفسير والتقييم والتقويم في الوقت نفسه» ⁴⁵. كما تقتضي "رؤية العالم" ضرورة التمييز بين الوعي الفردي والوعي الجماعي قصد بلوغ نتائج أكثر واقعية؛ فعبر التمييز بين مستويات الوعي وتحديد خطابات المبدع وخطابات الجماعة، يتحول النص الأدبي إلى منتج جماعي جمالي يستدعي جمهور قراء لتفسير إشاراتهِ وتنبيهاته ورموزه ومفاهيمه؛ وهذا ما يدل أن العلاقة بين الوعي الفرد - المبدع - ووعي الجماعة يتداخلان عبر علاقة حوارية متواصلة تكفلها رؤية مستقبلية تنبؤية، أساسها «وجهة نظر منظمة لفئة - أو - مجموعة من البشر الذين يعيشون في ظروف اقتصادية واجتماعية مماثلة» ⁴⁶. وبذلك تكون رؤية العالم، الأساس الموضوعي الذي من خلاله يمكن للناقد أن يسبر أغوار النص من خلال التحليل المنفتح على ثنائية الداخل والخارج؛ وهذا ما يساعد أكثر على التفسير والتأويل.

ورغم أن المفهوم، الذي اقترحه "غولدمان" يبقى فضفاضاً غير قابل للتحديد التام إلا أن أبحاثه ضبطته في إطار خاص يستوفي علوماً كثيرة « تمثل في النهاية مزيجاً من أدوات التفسير وبذلك تنتماس البنيوية التكوينية مع كثير من علوم العصر المتقدمة إلى جانب مناهج النقد الأدبي والتحليل الاجتماعي النفسي للأدب»⁴⁷. وهذا ما يمنح البحث التكويني أفقاً جديدة لسبر أغوار النصوص وتأثيراتها الذهنية في جماعة المتلقين.

خاتمة:

التحليل البنيوي التكويني من أهم التطبيقات النقدية في تاريخ الأدب. يبحث في العلاقة بين العناصر الداخلية للنص بصفاتها أبنية عقلية، وبين مراميها المضمونية التي ترتبط ببناءات الوعي لدى مجموعة لغوية بشرية. وفي هذه العلاقة تندمج المعطيات الشكلية والوجدانية لتكون بنية أوسع هي البنية الدالة، وهي « محاولة لتقديم جواب دلالي على موقف معين وغايتها خلق توازن بين الذات الفاعلة وبين موضوع الفعل أي العالم المكتنف بها»⁴⁸.

- غاية البنيوية التكوينية إظهار العلاقة الفعلية القائمة بين الأدب والمجتمع والتاريخ باعتبارها أبنية متعالية والتأكيد على هذه العلاقة .

- البنيوية التكوينية في نظرتها للأدب تقارب الطابع الجمالي له من خلال عرض بني عالم المبدع المتجانسة مع البنى العقلية لبعض الجماعات الاجتماعية. - تهتم البنيوية التكوينية حسب "غولدمان" بالنص الأدبي وتقاربه وفق ثلاث زوايا

* أولها زاوية العمل الأدبي ، وتدرس فيه تركيب النص وخصوصيته النصية البنائية.

* ثانيها :منتج العمل الأدبي :فتحفر في مستوى العلاقة بين الجماعة المبدعة والمبدع نفسه،"يهدف البحث التكويني إلى معرفة البعد الاجتماعي للبنىات اللغوية المدروسة أدبياً، فيحاول الناقد دمج هذه البنيات في بنية أكبر هي السياق الذي شهد ظهور النص. ومن ثمة يفسر الناقد هذه البنية نفسها باعتبارها وظيفة لبنية اجتماعية أوسع منها.

- * ثالثها :الفترة التاريخية التي أنتج فيها العمل ،ويقوم الباحث عبرها بأخذ معرفة مسبقة حول المرحلة التاريخية التي ظهر فيها ،والفئة الاجتماعية التي يعبر عنها، فيعتمد إلى تتبع سيرة المؤلف وملابسات ظروف عصره السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

الإحالات والهوامش:

- 1 - لوسيان غولدمان : مقدمات في سوسيولوجيا الرواية ، تر: بدر الدين عروكي ، ص 229 .
- 2- المرجع نفسه، ص 229
- 3- يوسف حامد جابر: البنائية في النقد الأدبي المعاصر، دار لبنان للنشر والتوزيع ،لبنان 1988 ص 123.
- 4- لوسيان غولدمان: مقدمات في سوسيولوجيا الرواية ، مرجع سابق، ص 234 .
- 5 - لوسيان غولدمان : المادية الديالكتيكية وتاريخ الأدب والفلسفة، تر: نادر ذكرى، دار الحداثة للباعة والنشر، بيروت، ط 1، 1981، ص 9 .
- 6- ورد تحليل شامل لمقولة الجدل ضمن كتاب ل: ميخائيل انوود: معجم مصطلحات هيغل، تر: إمام عبد الفتاح، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ص 162.
- 7- شكري عزيز ماضي: في نظرية الأدب، دار المنتخب العربي، بيروت، ط 1، 1993، ص 84.
- 8- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 9- عمر محمد الطالب: مناهج الدراسات الأدبية الحديثة، دار اليسر للنشر و التوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 1988، ص 243.
- 10- صلاح فضل : النظرية البنائية في الأدب والنقد، دار الشروق ،القاهرة 1996، ص 152.
- 11- بسام قطوس: المدخل إلى مناهج النقد المعاصر، دار الوفاء الاسكندرية ،مصر ، ط 1 2006 ص 133.
- 12- جمال شحيد : في البنيوية التركيبية ،مرجع سابق، ص 77.
- 13- صالح ولعة: « البنيوية التكوينية »، مجلة التواصل ،مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة عنابة، عدد 08 جوان 2001، ص 258.
- 14- صالح ولعة: « البنيوية التكوينية مجلة التواصل »، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية ، ص 259
- 15- لوسيان غولدمان: الوعي القائم والوعي الممكن ، تر: محمد برادة، البنيوية التكوينية والنقد الأدبي ، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت ، 1984، ص 37.
- 16- يون باسكادي : البنيوية التكوينية ولوسيان غولدمان، تر: محمد سبيلا مؤسسة الأبحاث العربية ،بيروت، لبنان، ط 1، 1986، ص 15 .
- 17- صالح ولعة : البنيوية التكوينية ولوسيان غولدمان ،مرجع سابق ، ص 255.
- 18- ستيبان اودوف : على دروب زرادشت ، تر: فؤاد أيوب ، دار دمشق، سوريا، ط 1، ص 108 ..
- 19- صالح سليمان عبد العظيم : سوسيولوجيا الرواية السياسية ، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ط 1998 ، ص 57.
- 20- صالح ولعة : البنيوية التكوينية والنقد الأدبي ، مرجع سابق، ص 256.
- 21- صالح سليمان عبد العظيم : سوسيولوجيا الرواية السياسية ، مرجع سابق، ص 85.
- 22 - جابر عصفور : عن البنيوية التكوينية ، مرجع سابق ، ص 84.
- 23 - لوسيان غولدمان : مقدمات في سوسيولوجيا الرواية، تر: بدر الدين عروكي، مرجع سابق، ص 229-230 .
- 24- محمد خرماش : إشكالية الناهج في النقد الأدبي المغربي المعاصر ، دار طوبقال للنشر والتوزيع /المغرب، 1996 ص 19.
- 25- جمال شحيد ، في البنيوية التركيبية ، مرجع سابق، ص 80 .
- 26- المرجع السابق، ص 29.

- 27- أحمد سالم ولد أباه : البنويّة التكوينية ، البنويّة التكوينية و النقد العربي الحديث، المكتبة المصرية العامة، مصر، ط1 1996 ص 60.
- 28- صالح ولعة : البنويّة التكوينية ولوسيان غولدمان، مجلة التواصل ، مرجع سابق ، ص 251.
- 29- أحمد سالم ولد أباه : البنويّة التكوينية، مرجع سابق ، ص 62.
- 30- المرجع نفسه ، ص 62.
- 31- يقول غولدمان: "الفهم محايث للنص والتفسير يستدعي عوامل خارجية عن هذا الأخير". ينظر؛ لوسيان غولدمان: العلوم الإنسانية والفلسفة ، تر: يوسف الأنطاكي، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ط1، 1996.
- 32- جمال شحيد: البنويّة التركيبية ، مرجع سبق ذكره، ص 85.
- 33- هيندلس: مفهوم النظرة إلى العالم وقيّمته في نظرية الأدب، تر: عبد السلام بنعبد العالي ، من كتاب البنويّة والنقد الأدبي مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت، 1984، ص 114.
- 34- لوسيان غولدمان: مقدمات في سوسيولوجية الرواية ، مرجع سابق، ص 234 .
- 35- جاك دوبوا : نحو نقد أدبي سوسيولوجي، تر: قمري البشير، من كتاب: البنويّة والنقد الأدبي، مؤسسة الأبحاث العربية بيروت، 1984، ص 76.
- 36- لوسيان غولدمان : المادية الديالكتيكية وتاريخ الأدب والفلسفة ، مرجع سابق ، ص 9.
- 37- ر، هيندلس: مفهوم النظرة إلى العالم وقيّمته في نظرية الادب ، مرجع سابق ، ص 117.
- 38- ينظر، صلاح فضل: لنظرية البنائية في الأدب والنقد. مرجع سابق ، ص 9 .
- 39- المرجع نفسه، ص 243 .
- 40- المرجع نفسه، ص 49 .
- 41- لوسيان غولدمان: المادية الديالكتيكية وتاريخ الأدب والفلسفة، مرجع سابق، ص 22-23 .
- 42- فؤاد أبو منصور: النقد البنوي الحديث، نصوص-جماليات-تطلعات -دار الجيل ، بيروت، 1985، ص 126.
- 43- جمال شحيد: في البنويّة التركيبية ، مرجع سابق ، ص 47.
- 44- للإطلاع أكثر، ينظر: تودوروف كنت و آخرون: القصة، الرواية، المؤلف، تر: خيرى دومة، مر: سيد البحراوي، دار الشرقيات القاهرة، 1997، ص 107.
- 45- مدحت الجيار : النص الأدبي من منظور اجتماعي، دار الوفاء للنشر، الإسكندرية، ط 1، 2001، ص 66.
- 46- جمال شحيد : البنويّة التركيبية، مرجع سابق، ص 66.
- 47- المرجع نفسه، ص 67.
- 48- بسام قطوس: المدخل إلى مناهج النقد المعاصر، مرجع سابق، ص 133.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- محمد خرماش : إشكالية الناهج في النقد الأدبي المغربي المعاصر ، دار طوبقال للنشر والتوزيع /المغرب ، 1996.
- 2- أحمد سالم ولد أباه : البنويّة التكوينية ، البنويّة التكوينية و النقد العربي الحديث، المكتبة المصرية العامة، مصر ، ط1 1996.
- 3- بسام قطوس: المدخل إلى مناهج النقد المعاصر، دار الوفاء الإسكندرية ، مصر ، ط1 2006.
- 4- تودوروف كنت و آخرون: القصة، الرواية، المؤلف، تر: خيرى دومة، مر: سيد البحراوي، دار الشرقيات القاهرة، 1997.

- 5- جاك دوبوا : نحو نقد أدبي سوسيولوجي، تر: قمرى البشير، من كتاب: البنائية والنقد الأدبي، مؤسسة الأبحاث العربية بيروت، 1984.
- 6- ر. هيندلس: مفهوم النظرية إلى العالم وقيمتها في نظرية الأدب، تر: عبد السلام بنعبد العالي، من كتاب البنائية والنقد الأدبي مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1984.
- 7- ستيبان اودوييف : على دروب زرادشت، تر: فؤاد أيوب، دار دمشق، سوريا، ط1، د.ت .
- 8- شكري عزيز ماضي: في نظرية الأدب، دار المنتخب العربي، بيروت، ط1، 1993.
- 9- صالح سليمان عبد العظيم : سوسيولوجيا الرواية السياسية، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ط 1998 .
- 10- صالح ولعة: « البنائية التكوينية»، مجلة التواصل، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة عنابة، عدد 08 جوان 2001.
- 11- صلاح فضل : النظرية البنائية في الأدب والنقد، دار الشروق ، القاهرة 1996.
- 12- عمر محمد الطالب: مناهج الدراسات الأدبية الحديثة، دار اليسر للنشر و التوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 1988.
- 13- فؤاد أبو منصور: النقد البنيوي الحديث، نصوص-جماليات-تطلعات-دار الجيل، بيروت، 1985.
- 14- لوسيان غولدمان : المادية الديالكتيكية وتاريخ الأدب والفلسفة، تر: نادر ذكرى، دار الحداثة للباعة والنشر، بيروت، ط 1981.
- 15- لوسيان غولدمان : مقدمات في سوسيولوجيا الرواية، تر: بدر الدين عروكي، د.ت.د.ط
- 16- لوسيان غولدمان : العلوم الإنسانية والفلسفة، تر: يوسف الأنطاكي، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 1996.
- 17- لوسيان غولدمان: الوعي القائم والوعي الممكن، تر: محمد بريدة، البنائية التكوينية والنقد الأدبي ، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت ، 1984.
- 18- مدحت الجبار : النص الأدبي من منظور اجتماعي، دار الوفاء للنشر، الإسكندرية، ط 1، 2001.
- 19- ميخائيل انوود: معجم مصطلحات هيغل، تر: إمام عبد الفتاح، المجلس الأعلى للثقافة، مصر .
- 20- يوسف حامد جابر: البنائية في النقد الأدبي المعاصر، دار لبنان للنشر والتوزيع ،لبنان 1988
- 21- يون باسكادي : البنائية التكوينية ولوسيان غولدمان، تر: محمد سبيلا مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، ط1986، 2.